



غياث الإسلام الصديقي الندوي (*) - الهند

على لسان التراب

وَأَنْ، وَلَا يَتَكَبَّرُ، وَلَا يَتَجَبَّرُ، وَلَا يَظْلَمُ وَلَا يَحْتَقِرُ أَحَدًا. وَلَكِنَّ الْعَجَبَ أَنَّهُ لَا يَفْكَرُ فِي أَصْلِهِ، وَيَرْتَكِبُ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَا يَنَاسِبُ بَنِيَّتَهُ وَكِيَانَهُ. وَبِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ لَنَا دَوْرٌ رِيَادِيٌّ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَأَسْبَابُهَا. عَقِبَ ذَلِكَ، جَعَلَ التُّرَابُ يَحْكِي حِكَايَتَهُ مَعَ الْإِنْسَانِ وَأَهْمِيَّتَهُ فِي الْكَوْنِ فَيَقُولُ: يَا تُرَى لَوْ تَأَمَّلْتَ فِيمَا يَوْجَدُ عَلَى الْأَرْضِ لَوَجَدْتَ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِنْسَانِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَسَاكِنَ وَمَلَابِسَ وَمَأْكُولَاتٍ وَتَسْهِيلاتٍ، كُلُّهَا تَتَكَوَّنُ مِنْ ذَرَّاتٍ وَتَأْتِي مِنْ تَحْتَ الْأَرْضِ. فَالْمَالُ الَّذِي يَكُونُ مَرْغُوبًا فِيهِ لَدَى الْإِنْسَانِ وَمُحِبَّبًا إِلَيْهِ، وَإِنَّهُ يَقيِّمُهُ وَيَقْعُدُهُ، وَمُعْظَمُ نَشَاطَاتِهِ لِأَجْلِهِ، يَكْسِبُهُ الْإِنْسَانُ عَنْ طَرِيقِ التَّجَارَةِ وَالْوُضَائِفِ الْمُتَوَعَّعةَ لِقَضَاءِ الْحَاجَاتِ فِي مَعْتَرِكِ الْحَيَاةِ. وَلَا يَهْتَمُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْحَلَالِ فِي كَسْبِهِ. فَأَيَّمَا كَانَ شَكْلُ الْمَالِ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالْدَنَانِيرِ وَالرِّيَالَاتِ وَالرُّوبِيَّاتِ وَهَلَمْ جَرًّا، إِنَّمَا يَكُونُ صَنْعُهُ مِنَ الْوَرَقِ وَالْمَعْدِنِ وَتَبْلُغُ سَلَالَتُهُمَا الصَّنَاعِيَّةَ إِلَيَّ. وَسِيرُجُ إِلَيَّ بَعْدَ قَضَاءِ أَيَّامِهِ فَوْقَ الْأَرْضِ.

ذَاتَ مَرَّةٍ غَلْبَنِي التَّفَكِيرُ فِي التُّرَابِ فَوَجَدْتُهُ يَنْطَلِقُ عَنْ حَقَائِقِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ، وَكَلِمَاتِهِ تَهْمِسُ فِي أَذُنِي، وَاسْتَهْلَهَا بِتَوْجِيهِ شَكْوَى: أَنَا التُّرَابُ الَّذِي بَلَغَ مِنَ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ سِوَايَ، فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِحْتِقَارِ وَالذُّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ. فَيَقَالُ «أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ» أَيْ أَصَقَهُ بِالتُّرَابِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَنْفُ مِنْ جَمَلَةِ الْأَعْضَاءِ فِي غَايَةِ الْعِزَّةِ، وَأَنَا التُّرَابُ فِي غَايَةِ الذُّلَّةِ، جَعَلَ النَّاسَ قَوْلَهُمْ «رَغَمَ أَنْفِهِ» كَنَايَةً عَنِ الذُّلَّةِ. وَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَيَّ عَلَى أَنَّني مَادَّةٌ وَسَخَةٌ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عِبَارَةً عَنْ مَادَّةٍ حَيَّةٍ تَدَبَّ فِيهَا الْحَيَاةُ. وَالْوَاقِعُ أَنَّ وُجُودِي ضَرُورِي جَدًّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَلَوْلَا التُّرَابُ لَمْ يَكُنْ لِلْحَيَاةِ أَنْ تَنْشَأَ أَصْلًا عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الْأَرْضِ.

ثُمَّ بَدَأَ الْوَعْظَ وَالْإِرْشَادَ وَهُوَ يَقُولُ: لَا يَهْمُ الْبَشَرِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ مِنْ سَلَالَتِي كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ (الْمُؤْمِنُونَ)، وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ». فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ يَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ حَقِيقَتَهُ فِي كُلِّ حِينٍ

(*) باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة دلهي.

ألم يلفت انتباهك يوماً أنَّ الإنسان عندما يجوع يأكل مختلف المأكولات حسب مستواه المعيشي من لحوم الإبل والبقر والغنم أو السمك وغير ذلك، والجميع مخلوق من ذراتي، ويأكل الإنسان الحبوب، والخضراوات، والفواكه وما إلى ذلك. تأتي كلها من الحقول والأشجار التي تنبت من الأرض. وجميع المأكولات ترجع إلى الأرض وتغيب في جعبتي بعد ما تكون من المهضومات والمهملات.

وإن تتفكر في الملابس التي هي حاجة بشرية من البداية، يترنن الإنسان بها في حياته، ويختار من تنوعها ما يدل على رخائه أو مسكنته، وما يجعله مرموقاً أو معتوباً، ويصون الإنسان بها نفسه من حرارة الشمس وشدة البرد، ويختلف اللباس مع الفصول من الشتاء والصيف والخريف، تجد أنَّ جميع الملابس تصنع من الصوف وما إلى ذلك، ثم تمر بمراحل مختلفة في صناعتها وحبكها ورحلتها من التراب إلى جسم الإنسان. وإنها ترجع إليّ بعد رثاقتها وتفككها.

والجدير بالذكر أنَّ المباني التي يعيش فيها الإنسان أيّاً كان نوعها من قصور الملوك والوزراء والأمراء، وبيوت عامة الناس، وأكواخ الفقراء والمساكين، ومهما كان شكلها وارتفاعها وعرضها، ومهما كانت متميزة بالاتساع والطراز، إنها مبنية من الإسمنت والآجر والجصّ واللبنات وهلمّ جرّاً، كلّ ذلك يتكوّن من ذرات الأرض. وتتبدّل الأبنية بالتراب بعد أن أصيبت بالانهدام والدمار.

وهل تدبّرت في المراكب؟ إنها حاجة ملحة للإنسانية منذ القدم، يستخدم منها الإنسان ما يناسب وضعه ويقضي حاجته من الدراجة والسيارة والحافلة والقطار والطائرة والسفينة وهلمّ جرّاً. إذا تفكرت في كيانها وبنائها وجدت أنَّ سلسلة صنعها

تتصل بالتراب. إنها أيضاً تندمج في التراب بعد أن تكون مهملاً.

وعلى هذا المنوال، كثيرٌ من مرافق الحياة وما يختصّ بها من مراوح ومكيفات وثلاجات وتلفزيونات ومذاييع وحواسيب وما إلى ذلك من الأدوات الكهربائية، والأجهزة الإلكترونية والتكنولوجية، بالإضافة إلى أثاث البيت من سرر، وأرائك، وكراسي، وطاولات، ونحوها يستخدمها الإنسان في كلّ حين وأن، وقد صارت جزءاً لازماً من حياته. ألم تر أنَّ كلّ ذلك يصنع من مختلف المعادن والأخشاب التي تخرج من تحت الأرض فيقطع الجميع مراحل مختلفة من التراب إلى تناول الإنسان. وبالتالي يرجع كلّ ذلك إلى التراب بعد الإصابة بالزوال والانحيار.

فينتج ممّا سبق أن ما يأكله الإنسان ويلبسه ويسكن فيه ويركب عليه ويتمتع به، كلّ ذلك من عناصره. ويمكن الاعتراف بأنّ كلّ شيء مادّي على وجه الأرض خلقه الله من التراب. وعندما يموت الإنسان، يدفن في الأرض ويحشى عليه التراب ويصير بعد أيام جزءاً منه. وقال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) (طه)﴾.

ويا هذا! رغم كلّ ذلك، ألا ترى أنَّ كثيراً من الناس يتجاهلون علاقتهم بالتراب، وينسون أنَّ بدايتهم ونهايتهم كليهما في التراب خلال هذا العالم المادّي في حين ينبغي للإنسان أن يجتنب الخيلاء واعتبار نفسه شخصية عظيمة قوية قادرة، وهو يعيش بين الطين والتراب. فيجب عليه أن يتدبّر في قدرة الله تعالى وآياته في النفس البشرية والكون والحياة كي يهتدي إلى الصراط المستقيم. قال الله تعالى: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»، وقال: «إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب» ■